مساهمة الإسلام في الحضارة الغربية

د. أبو عمران الشيخ[1]

منذ الأحداث المأساوية التي وقعت في الولايات المتحدة الأمريكية، يجتهد العديد من الصحافيين والباحثين، سواء بالكتابة في الصحف أو التدخل في الأجهزة السمعية البصرية، لكي يجعلوا الإسلام مسؤولا اليوم عن العنف، أو عن الإرهاب المنتشر في العالم. صحيح أن بعض العقول المستنيرة ثارت هنا وهناك على هذه الحقيقة المضادة، غير أن أصواتهم ليست مسموعة البتة. إذن، من الضروري أن نعود إلى هذا الموضوع وأن نعطي التوضيحات المفيدة لإقامة حوار مثمرٍ بين حضارتينا المتكاملتين جداً، بالرغم من الأحكام المسبقة المنتشرة والناتجة عن جهل مؤسف شائع جداً في بعض الأوساط، سواء أكان ذلك في العلوم الإنسانية أو في العلوم الدقيقة. فإن مساهمة الإسلام وثقافته في الحضارة العالمية كانت عظيمة. إن الأخصائيين يعرفون ذلك وكتاباتهم تثبته لو اطلعنا عليها. لكنّ المؤسف أنّ الجمهور الغربي الكبير لا يعرف ذلك فيقع بسهولة تحت وطأة توجيه أولئك الذين يزعمون أنّ عصرنا هو عصر صراع الحضارات وليس عصر التفاهم والتبادلات المتعددة بينها، لهذا رأينا من المفيد أن نقدم هنا لمحة عن حضارة الإسلام.

1. رئيس المجلس الإسلامي الأعلى.

المعرفة تأتي من المشرق

من خلال الترجمات والرحلات، نقل المشرق العربي المسلم للغرب، في عهد القرون الوسطى، المعارف الفلسفية والعلمية التي لم تكن بحوزة هذا الأخير. لقد اكتشفها مترجمو "بيت الحكمة" الذين جمعهم بمدينة بغداد في القرن العاشر المأمون أكثر الخلفاء العباسيين تنورا؛ إنهم تعرفوا على ثقافات اليونان وفارس والهند... فقد عُرِّبت أغلب المؤلفات الأساسية ونُقلت إلى الغرب باللغة اللاتينية، لا سيما عن طريق مدارس صالرنو (إيطاليا) وطليطلة (إسبانيا)، والأمر يتعلق بكتب أفلاطون وأرسطو بالخصوص وبأمهات كتب الطب والرياضيات فيما بعد. لقد نوقشت وحُققت محاورات أفلاطون ومؤلفات أرسطو بشكل واسع وبدقة من قِبَلِ الفارابي وابن سينا وابن رشد، وهكذا وصلت إلى فرنسا وإنجلترا وألمانيا وإيطاليا... لقد تغذى الفكر الأوروبي بالفلسفة العربية إلى درجة أنّ الأستاذ "إيتان جيلسون" من الكوليج دو فرانس لاحظ -عن حق- أنّ الفلاسفة العرب كانوا أساتذة الفلاسفة المسيحيين واليهود في القرون الوسطى.

في ماذا كان إسهام الفلسفة العربية؟ إذا توقفنا عند ابن رشد، فيلسوف قرطبة الشهير، يمكننا أن نقدم فكرة على هذا الإسهام. إن ابن رشد الطبيب والفيلسوف والفقيه عرفه الغرب أولا بصفة شارح كبير لأرسطو واعتبر شروحه المترجمة إلى اللاتينية حجة في إسبانيا وأوروبا كلها. لقد جرت مناقشة عريضة جدل حاد لمعرفة ما إذا اقتصر عمل على مجرد نقل وفي لفكر الفيلسوف اليوناني، أو -خلافا لذلك- على تلخيصه بحرية، مصححا الأخطاء التي لاحظها هنا وهناك.

إنّ ابن رشد مع إعجابه بأرسطو كعبقري عظيم، لم يأخذ بكل ما به جاء مذهبه، بل ذهب إلى القول بأنه كان أحياناً مبهما فأعاد بناء هذا المذهب ليجعله أكثر وضوحا ومعقولية. وفضلا عن ذلك، قد كان ابن رشد عالما مسلما وقاضيا، أي أنّ أفكاره كانت تختلف بشكل متميز عن أفكار أرسطو. فأضاف إلى المسائل التي أثارها الفيلسوف اليوناني أفكاراً أخرى نابعة من فكره الشخصي، خاصة مثل التوفيق بين الفلسفة والدين الذي أخذ به وناقشه المؤلفون المسيحيون واليهود فيما بعد، وأثّرت الفلسفة الرشدية تأثيراً كبيراً في الغرب بصفة عامة، فحاول بالخصوص أن يوفق بين العقل والعقيدة الدينية، مبيناً أنهما ليسا متعارضين كما فعل ابن رشد في كتابه "فصل المقال"، إذ رأى ابن رشد أنه من غير المعقول رفض الفلسفة اليونانية بذريعة أنها وُلدت قبل الإسلام؛ وهنا نسجل تفتح عقله وتقبله الأفكار الأجنبية، ورأى أيضا أنَّ الفلسفة والدين يبحث كلاهما عن الحقيقة، إذن لا يمكن أن يقع التناقض بينهما.

وقد امتدت الرشدية اللاتينية إلى جامعات "بادوا" و"باريس" و"طليطلة" و"لوفلين"... إنّ أتباعها الأوروبيين بالغوا في هذه النظرية وحاولوا أن يجعلوا ابن رشد "مفكراً متحرراً" قصد معارضة الكنيسة لأفكاره، ولذلك حاربه بشدة رجال الكنيسة أمثال "توماس الأكويني" و"رامون لول"...والواقع أنّ هذه "الرشدية" ابتعدت عن المذهب الحقيقي لفيلسوف قرطبة الذي بقي وفيا وفاء عميقا للتوفيق بين العقيدة والعقل.

وصلت أيضا إلى الغرب مؤلفات أدبية، وألهمت العديد من المؤلفين اللاتينيين، وهكذا نشرت ودرست "كليلة ودمنة" من جهة، و"حي بن يقظان" من جهة أخرى. ويمكن الاطلاع على كتاب السيدة "سيغريد هونكي" : "شمس الله تسطع على الغرب". فأولئك الذين يريدون فعلا الرجوع إليه، سيجدون تفصيل كل ما اقتبس الغرب من المشرق في أغلب المجالات، وبالخصوص في المعارف وأسلوب الحياة. وبعد الحروب الصليبية جلب المحاربون الإفرنجة من المشرق ما استطاعوا من أنواع الألبسة والأغذية والفنون...

تطور العلوم ونقلها إلى الغرب

1. في الطب

قام العالم حنين بن إسحاق البغدادي بترجمة جزء كبير من مؤلفات "هيبوقراط" و"غاليانوس" التي انتشرت بشكل واسع بالمنطقة العربية والإسلامية، وقد ألّف كتبا في الطب والصيدلة، وجاء ابن ربان الطبري بعده، إلاّ أنه لم يشتغل البتة بالترجمة، وإنما مارس الطب ودوّن "كتاب الفردوس" وهو كتاب الحكمة في الطب فاشتهر به وذاع صيته. وقد اشتمل الكتاب على فصول عديدة عرض فيها المؤلف الأمراض وأسبابها، مرتباً إياها حسب الأجزاء المختلفة للجسم، وفيما بعد استقر تلميذه "أبو بكر الرازي" -بدوره- في بغداد، حيث أشرف على مستشفى كبير واشتهر في تدريس الطب. والرازي المعروف لدى اللاتينيين بـــ : "رازيس" هو الذي ألف دائرة معارف طبية عنوانها "الحاوي". أورد في هذا الكتاب أقوال القدماء والمُحدثين منذ عهد

"هيبوقراط" و"غاليانوس" حتى عصره، ثمّ حللها ونقدها وأكملها انطلاقا من تجربته الشخصية. قد وجه مؤلفه إلى طلبته قبل كل شيء، وحين تُرجم إلى اللغة اللاتينية بعنوان "Continens" فأثر تأثيراً كبيراً في الغرب.

يجب أن نذكر أيضاً ابن سينا من بوخارة الملقب بـ "الشيخ الرئيس" والذي ألف موسوعة شهيرة عنوانها : "القانون في الطب" حيث عرض فيها المبادئ العامة للطب ورتب الأمراض وأسبابها وحدد طرق العلاج وصناعة الأدوية التي يتعين تناولها. وقد صار هذا الكتاب العظيم مرجعاً ضرورياً للدراسات الطبية في المشرق وفي الغرب؛ لقد تُرجم إلى اللاتينية وإلى لغات أخرى وأعيد طبعه باستمرار، فصار أحد المراجع الرئيسية في الدراسات الطبية في أوروبا إلى جانب كتب الرازي والزهراوي وابن زهر (من إشبيليا) وابن رشد (من قرطبة)، التي تُرجمت كلها إلى اللاتينية واستعملت بشكل واسع في الجامعات الغربية خلال قرون عديدة.

هل اكتفى هؤلاء الأطباء بتبليغ المعارف التي كانت بحوزتهم؟ زعم ذلك بعض الدارسين من الأطباء الغربيين خطأ. إنّ الأطباء العرب والمسلمين لم يدرسوا بعمق الطب اليوناني أو الهندي- والفارسي فحسب، وإنما أثروه بتجربتهم وأضافوا إليه معارف جديدة لا نقاش فيها، لاسيما في علاج الأمراض، الصيدلة، والتنظيم الطبي. لقد مارسوا حرفتهم في المستشفيات التي كانت تشتغل في المدن الإسلامية الكبرى مثل بغداد والقاهرة وقرطبة... وكان كل مستشفى مقسما إلى فروع عدة حسب أصناف الأمراض. وكان الأساتذة ينتقلون من قاعة إلى أخرى لفحص المرضى رفقة مساعديهم من الطلبة الذين كانوا يُجرون الفحص ويصفون العلاج في حضور أساتذتهم الذين كانوا يتدخلون في حالة الخطأ.

وإلى جانب قاعات العلاج، كانت هناك قاعات تدريس ومكتبات طبية. كانت الوظيفة الطبية نفسها مراقبة من قبل الدولة التي كانت تجعل أخلاقيات المهنة محترمة برعاية رئيس الهيئة الطبية. ولم يسمح لأحد بممارسة الطب دون الحصول على شهادة بعد إجراء امتحان بين المترشحين، وكان الصيادلة -بدورهم- مُرَاقَبين، فإن ارتكبوا مخالفات، عوقبوا وحجزت مُستحْضراتهم.

2. في الرياضيات

تُرجمت أيضا المؤلفات اليونانية والهندية، ففي الهندسة نقل العلماء العرب والمسلمون "عناصر أوكليدس" فأكملوها وحققوها، وفي الجبر، أعطت أعمالهم لهذا العلم انطلاقة جديدة. أما في الحساب، فقد اشتغلوا بالعد والكسور، وفي حساب المثلثات وعلم الفلك، فإنّ أعمالهم صارت مشهورة. لقد صححوا مؤلفات "بطليموس" وعلماء الهند، وأضافوا إليها اكتشافاتهم الشخصية. ويمكننا أن نذكر من بين الأسماء الكبيرة "ابن موسى الخوارزمي" الذي ألف كتابا في الجبر والمقابلة و"ثابت بن قرة" الذي عمم نظرية "فيثاغورس" وحاول البرهنة على الفرض الخامس لـ "أوكليدس" و"البيروني" من غزنا (أفغانستان) الذي اشتهر في الصيدلية وعلم الفلك والأنثروبولوجية، إلى درجة أنّ مؤرخ العلوم "جورج صارتون" سمّى القرن الحادي عشر بـ : "عصر البيروني".

في المغرب العربي، يجب أن نذكر العالم "ابن البناء" عالم الرياضيات الشهير المراكشي، وهو مؤلف كتاب في الحساب، وصفه "ابن خلدون" بأنه : "مُؤلِّف وجيز ودقيق في قواعد الحساب". كما يجب ذكر

"القلصادي الأندلسي"، عالم الرياضيات الذي لجأ إلى بجاية قبل قليل من سقوط غرناطة، وهو مؤلف العديد من كتب الحساب والجبر.

3. في العلوم الفيزيائية والطبيعية

اطلع علماؤنا على أغلب النصوص اليونانية، لاسيما مؤلفات أرسطو و"يوسكوريدس" و"أوكليدس". قد نقد "البيروني" -الذي سبق ذكره- أرسطو كما نرى ذلك في مراسلاته مع ابن سينا. كما قام مؤلفو دوائر المعارف أو الموسوعات "كالرازي" و"ابن سينا" بمعالجة العديد من مسائل العلوم الفيزيائية والطبيعية، مثل علم المعادن وعلم طبقات الأرض وعلم النباتات... لقد تميز "ابن الهيثم" في الفيزياء بكتابه الشهير في علم البصريات "كتاب المناظر" الذي أخذ مكان علم بصريات "أوكليدس". ودرس "حنين" و"الرازي" مسائل العين، غير أنّ "بن الهيثم" هو الذي شرحها فعلاً وجعل من علم البصريات علما متميزا. وفي علم الآلات (الميكانيك)، انصبّ بحث مؤلفينا على صناعة الآلات مثل الطاحونات الهوائية والمائية والساعات الجدارية والرافعات... وقد اشتهر مؤلفون كبار في هذا المجال منهم "ابن موسى" و"ثابت بن قرّة" و"الجزري" و"الخازني". أمّا في الكيمياء، فقد اعتنى العلماء بالمعادن والصيدلة، فاكتشفوا العديد من السوائل مثل الكحول وحمض النتريك وحمض الكبريت، وأبدعوا مصطلحات علمية مازال بعضها يستعمل في أيامنا هذه مثل : أنبيق وقلي ولكسير... وقد ميز البيروني بوضوح بين الكيمياء العلمية والكيمياء السحرية التي نقدها، كما سيفعل "ابن خلدون" في "مقدمته" الشهيرة. تبعا لهذا وضعت طرق عديدة مثل التقطير، التصعيد، التفحم...

وخلاصة القول أنه يجب أن نعترف بإسهام الإسلام العظيم في الحضارة العالمية وأن نلاحظ أنّ التبادل مع الحضارات الأخرى كان دائماً ولم يضعف فعلاً إلاّ ابتداء من القرن السادس عشر لأسباب تاريخية جدّ معروفة. فالخلافات بين الدول الإسلامية والفوضى الداخلية من جهة، والتوسع الاستعماري للغرب من جهة أخرى قد شلّت الجهود الإبداعية لمدة طويلة. إلاّ أنّ "نهضة" القرن التاسع عشر سمحت للعالم الإسلامي بالمشاركة التدريجية في تطور العلوم، بفضل جهود الترجمة انطلاقا من مؤلفات الغرب. هذا التطور تدعم خلال القرن العشرين باستقلال البلدان الإسلامية التي تجهد نفسها، منذئذ، للحاق بركب التقدم وتعويض تأخرها العلمي والثقافي. إنّ جائزة "نوبل" في الفيزياء التي منحت لأول مرة لعالم مسلم هو "عبد السلام" ذي الأصل الباكستاني، هي علامة واعدة بالنسبة لكل العالم الإسلامي الذي يطمح اليوم في مساهمة نشطة عن طريق علمائه وباحثيه في حضارة عصرنا. وهكذا، فإنّ **حوار الحضارات** أصبح ضرورة لا مفر منها، قصد تخفيف التوترات في العالم وفوارق النمو التي تبعد دول الشمال عن دول الجنوب، إذ يمكن لهذا الحوار أن يؤمِّن السلام والعدالة بين الشعوب ولم يعد الأمر يتعلق بالتسليم بصراع مزعوم بين الحضارات والثقافات لتبرير توسع جديد للغرب أو سيطرة هذه القوة أو تلك.

إنّ الإسلام يمكنه أن يساهم في الحضارة نظراً لكونه مبنياً أساسا على السلام والعدل والتسامح والبحث عن المعرفة.

المراجـــع

1. عروة (أ.) : "النظافة والبيئة لدى ابـــن ســـينا" (بالفرنســـية)، ش.و.ن.ت، الجزائر 1974.

2. بوالو (د.ج.) : "آثار البيروني" (بالفرنسية)، ميديو 2، القاهرة 1955 (Mides).

3. "دائرة المعارف الإسلامية"، لايدن، باريس، الطبعة الثانية.

4. هونكي (س.) : "شمس الله تسطع على الغرب"، أ.ميشال، باريس 1967.

5. ابن العوام : "كتاب الفلاحة"، باريس 1864، في جزئين، وإعادة طبع بوسلامة تونس 1977.

6. ابن الهيثم : "الوجيز في علم الفلك"، باريس، نظام العالم (لدوهايم)، باريس 1914.

7. ابن سينا : "القانون في الطب"، في ثلاثة أجزاء، طبعة بيروت 1973.

8. كراوس (ب.) : "جابر بن حيان"، القاهرة 1943.

9. لوكلارك (ل.) : "تاريخ الطب العربي"، باريس 1876، إعادة طبع، الرباط 1980، في جزئين.

10. ميلي (هـ. أ.) : "العلم العربي"، بريل، الطبعة الثانية، لايدن 1966.

11. نصر (س. هـ) : "العلم والمعرفة في الإسلام"، سندباد، باريس 1979.

12. الرازي : "الحاوي"، النص العربي وترجمته اللاتينية.

13. رشدي (ر.) : "بين الحساب والجبر"، الآداب الجميلة، باريس 1984.

14. سارتون (ج.) : "تاريخ العلوم"، الترجمة العربية، دار المعارف، القاهرة 1971، 6 أجزاء.

15. فارنيت (ج.) : "ما تدين به الثقافة لعرب إسبانيا"، الترجمة الفرنسية، سندباد، باريس 1986.

16. والزر (ر.) : "اليونان لدى العرب" (بالإنجليزية)، أوكسفورد 1962.

17. يوسشكيفيتس (أ.ب.) : "الرياضيات العربية"، الترجمة الفرنسية، دار فراين، باريس 1976.